الصعداء ، الا انني فجأة رايت الشرر يتطاير من تحت قدميه الحافيتين وهو يغوص في حقل الرماد الواسع ، ولا شك انني بدوت له مجنونا وأنا أحدق فيه فاغر الفم يسير بهدوء وثبات فوق النار .

لم أنتبه الا حين خطوت الخطوة الاولى فوق الرماد . لقد بدا لي باردا في ذلك الفجر المسالم ، لم يخطر في بالي على الاطلاق انه كان مجرد فخ ملعون ، وأحسست بالنار تسلخ راحتي قدمي وكدت اسمع نزيز الدم ينطفىء بصوت مسموع تحت بدني ، وفجأة رايته ينظر الي بعينين مفتوحتين على وسعهما ، كان ابريق القهوة الممتلىء حتى حلقه يرجف في يدي رجفات صغيرة . انه من سوء الطالع ان تسقط الركوة من يدي وتندلق القهوة في ذلك الفجر وجها لوجه انا والشيخ سلمان وحدنا في هذا العالم .

وظل يتقدم ، كأنه يمشي على عشب . لقد هزني الرعب وسمعت نبض قلبي جنبا الى جنب مع الفحيح المكتوم للنار الراقدة تحت قدميه الحافيتين وقلت بيني وبين نفسي « نبي او مجنون » . ان ضوء الفجر جدير بأن يحبل بالاعاجيب ، ولكنه وصل ، ووقف أمامي بالهدوء ذاته فيما اخذت أحدق الى قدميه ، كان الابهامان فقط يرتفعان عن التراب بحركة راجفة . سكب القهوة بثبات ، ووضعها على الحجر المستدير الى جانبي وتحرك مبتعدا دون ان يوليني ظهره وصرخت : « قاسم ! » فوقف دون أن يقول شيئا ، وعدت أقول : « ماذا فعلت بنفسك يا فتاح يا عليم ؟ » فنظر وراءه الى حقل النار ، ورأينا مما دخانا ضعيرا يتعالى من الحفر التي خلفتها خطواته ، ثم عاد فنظر الى قدميه ثابتتين فوق التراب . ثم الي . وانتظرت ان يقول شيئا الا انه فرش راحتيه محتارا ، وعاد ينظر الى ابريق القهوة .

وكنت أريد أن يتركني أمضي الا انه ظل ينظر الي مستنكرا ، ولم يكن لدي ما أقوله ، فهو يعلم انني لو تركت ابريق القهوة يسقط من يدي في ذلك الصباح الساكن ، وأنا وهو وجها لوجه وحدنا في هذا العالم ، لما تيسر لي أن أظل هنا لحظة اخرى ، ولما تيسر لي ابدا ان أرى « سمرا » مرة أخرى ولكانت قدماي ، على اي حال ، قد احترقتا ايضا ، مضيت الى الاسطبل واسقطت قدمي في بركة شرب الخيل : فى البدء انداحت حولهما غيوم رمادية أخذت تحمر رويدا رويدا وأحسست بلسع البرد يمتزج بأنين الجروح ، ثم جاءت « سمرا » فشمت الماء ونظرت الي برهة ثم تقدمت فحكت أنفها الوردي فوق كتفي وقالت لي ان القروح لن تلبث ان تلتحم ، فقمت معها الى كوم التبن حيث جففت قدمي ، وهناك تركتني أتمدد ريثما تجف القروح .

في تلك الظهيرة ، وبعد أن ترك الزائرون ديوانية الشيخ سلمان ، ولد قاسم فجأة ، وصار يرى في الغبسية هنا وهناك . ولم يكن بوسع الناس ان يحكوا عنه الا قصة مشيه الهادىء على النار، لقد تحدثوا ايضا عن قدميه الملفوفتين بكوم كبير من القماش المتسخ، ولكن فيما عدا ذلك ظل قاسم خارج حياتهم ، واذا كان قد دخلها لفترة قصيرة فقد خسر مقابل ذلك شيئا عزيزا عليه هو اسمه .. ذلك انه حين رويت القصة لاستاذ المدرسة في مساء اليوم ذاته ضرب كفا فوق كف وهو يضحك ضحكته الشهيرة التي تشبه غرغرة الابريق وقال : « هذا شيء لا يحدث الا لعاشق » وجامله الشيخ سلمان بضحكة مقتضبة عرف منها الاستاذ انه مطالب بتوضيح ، فمضى يقول : « ان نار العشق التي تكويه من الداخل أشد حرارة من النار التي داس عليها ، ولذلك لم يحس بها . انه عاشق » ، وهكذا فقد قاسم اسمه دفعة واحدة ، وفجأة .. وفي الواقع كان حضوره ذلك اليوم قصيرا جدا ، ففور ان اكتشف الناس وجوده جردوه من اسمه فغاب مرة اخرى ولكن بطريقة جديدة .

ولم أعرف ما حدث الا في المساء ، كنت واقفا خارج الباب حين بدا ضيوف الشيخ سلمان